الإسلام والفنون الجميلة

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت . ص ب . ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

د. محمد عمارة

الإسلام والفنون الجميلة

دار الشروق

الغلاف للفنان حلمى التونى

تقـديـم

على امتـداد ساحـة الفكر العـربى والإســلامى ، تصـاعد الجدل ، منـذ سنـوات ، حـول مـوقـف الإسلام مـن الفنـون .. فنـون السماع : الغنـاء والموسيقى .. وفنون التشكيل : الرسم والنحت والتصوير ..

تصاعـد الجدل ، ولا نقول نشأ ، فلقـد كان قائما هـذا الجدل على امتداد القرون التى تمثل عمر حضارة الإسلام .. قائما بين الـذين يقولون بإباحة هذه الفنـون وحِلّها ، وبين الـذين يكرهـونها ، وبين الذيـن يصعدون بهذه الكراهة إلى حد التحريم..

وهذا التصاعد لهذا الجدل حول موقف الإسلام من هذه الفنون قد تمثل فى تجاوز « القـول » إلى « الممارسـة والتطبيـق » عند فصيـل مـن فصـائل الحركة الإسـلامية المعاصرة ، يحكـم بحرمـة هذه الفنون .. فهنـاك بيوت حرمت فيها الأغـانى ، وحطمت الصور .. وهناك نفر مـن غلاة الإسـلاميين نزعوا مـن « بطاقات الهوية » صورهـم الشخصية ! .. بل لقد قرأ نـا ـ منذ سنوات ـ عن طـالب بجامعة الأزهر آثر مقاطعة الـدراسة وهجران التعليم على الاستجابة لإدارة شئون الطلاب التى طلبت منـه صورته كى توضع فى « السجلات » ؟!.. نـاهيك عن الكتب التـى أُلفت ، أو أُعيد طبعهـا ، والمقالات التى نشرت فى الجدل الدائر حول هذا الموضوع ..

وإذا كنا نتقدم بهذا الكتاب إلى مختلف الفرقاء الذين يختلفون حول موقف الإسلام من الفنون الجميلة ـ فنون السماع وفنون الصور ـ لنحسم ـ ببراهين فكر الإسلام ـ النقلية والعقلية ـ هذا الجدل القائم فى هذا الميدان .. فإننا نود أن ننبه ـ فى هذا التقديم ـ على حقيقة ـ ستبرهن عليها فصول هذا الكتاب ، وتؤكد عليها « ملاحقة » ـ حقيقة : أن الإسلام والفنون الجميلة قد ظلما جميعا فى أغلب هذا الجدل المستعر من حول حكم العلاقة بينهما ؟!..

● فهذه « الحرب » القائمة بين أنصار تحريم الفنون وبين أنصار حلّها وإباحتها ، يحسبها الفريقان قائمة فى ميدان واحد ، بينما هى ـ فى الحقيقة ـ قائمة فى ميدانين مختلفين .. فكأنما أغلب فرقائها يحاربون بضراوة ضد طواحين الهواء ؟!..

فلو اتفق الفرقاء ـ أهل الحلّ وأهل الحُرمة ـــ على أخذ رأى الإسلام ، فى هذه القضية ، من مصادره الجوهرية والنقية : الوحى الإلهى ، كما تمثل فى القرآن الكريم .. والبيان النبوى للبلاغ القرآنى ، كما تمثل فى السنة النبوية الشريفة ، قولا وفعلا وإقرارا ، تلك التى جسدت البلاغ القرآنى تجربة حضارية معيشة فى عصر صدر الإسلام .

ولو أنهم ، جميعا ، قد استرشدوا « بالثوابت » التى جاءت فى « فكر » أهل « الاجتهاد » ، من أئمة فقهاء الإسلام .. ولم يقفوا ، فقط عند كتابات أهل « التقليد » ..

ولو أنهم استحضروا ـ وهم يقرأون « فكر » أئمة الإسلام ـ فى هذه القضية ـــ الملابسات الاجتماعية و المذهبية ووقائع التاريخ التى أحاطت بنشأة هذا « الفكر » .. لو حدث ذلك ، لالتقى الفرقاء فى ميدان واحد ، ولانطلقوا من منطلقات متفقة ، ولتحاكموا إلى معايير موحدة.. ولو أن ذلك

قد حدث لما استعـرت هذه الحرب ، ولما تصاعد هـذا الجدل ، ولما احتدم هذا الخلاف ، الذى بدد ويبدد الطاقـات فى الصراع حول موقف الإسلام من الفنون !..

ولو اتفق هؤلاء الفرقاء ـ من أهل الحلّ وأهل الحُرمة ـ على تحديد المعنى الـذى يقصدون عنـدمـا يقولـون : « الفنـون الجميلة ».. الجميلـة فى ذاتها، والجميلة فى وظـائفها وتأثيراتها ومقـاصدهـا.. واتفقوا ، كذلـك ، على نوع وماهيـة « الإنسان » الـذى يريـده عصرنا مـن أمتنا ، ليستطيـع مواجهـة التحديـات الشرسة المعاصرة ، تلـك التى تقف لنهضـة الأمة بالمرصـاد.. لو حدث الاتفاق على نوع وماهية هذا الإنسـان الذى تحتاجه الأمة ، لتنهض به من وهدتها الحضارية الراهنة ، لاتفق هـؤلاء الفرقاء ـ أو على الأقل تقاربت مواقفهم من « نوع الفن الجميل » اللازم لتكوين هذا الإنسان.. ففنون الدعة والبطالـة والتواكـل و الاسترخاء والسطحيـة والتفاهـة غير فنون الحميـة والعمل والعزم والانتماء والنهوض.. والفنون التى تبنى الأمة المجاهدة لابد مختلفة عن « فنون » الخنا والفساد والفسق والانحلال!..

... ولو حدث الاتفاق ـ بين فرقاء حلّ الفنون وحُرمتها ـ على هذه الأسس والمنطلقات والمقاصـد والغايات ، لتوحّـد ميدان النظر ، وموضـوع البحث ، ولاتفق الفرقاء على كلمة سواء فى هذا الميـدان.. أو تقاربت مواقعهم على أقل تقدير!..

لكن شيئا من ذلك لم يحدث .. فـاستعرت الحرب ضد طواحين الهواء!.. واستهلك الجدل ، من الفريقين ، الكثير من الطاقات والامكانات .. وكان هذا الكتاب، الذى نأمل أن ينتقل بالقضية إلى موقع جديد..

كذلك ، نود أن نحدد ـ فى هذا التقديم ـ ماذا نعنيه بمضامين المصطلحات

التى جعلناها عنوانا لهذا الكتاب.. فذلك تقليد من تقاليد البحث العلمى ، نحـرص على أن نلتـزم بـه فيما نقدم مـن كتـابـات إلى العلماء والبـاحثين والقراء..

فنحن عنـدما نعنون بعضـا من كتبنا بعنـوان : (الإسلام و. . . .)[1] .. فإننا نعنى ونريد أن نقول : إن هذا هـو اجتهادنا ورأينا وفهمنا للإسلام . . ولم ولن يتبادر إلى ذهننا أن الرأى الذى نقدمه هو ذات « حكم الله » الفاصل فى الموضوع . . إنـه اجتهادنا ، الذى لا يصـادر الاجتهادات الأخرى بـاسم الإسلام . . فليس لبشر حظ من هذا السلطـان . . سلطان السلطة الـدينية ، التى تفرد ويتفرد بها شـارع الدين ، سبحانه وتعالى ، ومُبلـغ الدين ، صلى الله عليه وسلم . . وهى السلطة التى نقضنا جواز إضفائها على البشر فى أكثر من كتاب !..

إنـه رأى الإسـلام ، كما نـراه نحن . . وليـس « حكـم الله » الـذى يجَبّ اجتهادات المجتهـدين . . وإذا كـان رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ قد وصى صاحبـه ، ذلك الذى ذهب على رأس الجيش محاربـا ، فقال له : « إذا حاصرت أهـل حصن ، فأرادوك أن تنـزلهم على حكم الله ، فـلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنـك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا !.. »[2].

---

(١) لنا بهذا العنـوان عدة كتب ، منها : (الإسـلام وحقوق الإنسـان) و (الإسلام والمستقبل) و(الإسلام والمرأة) و (الإسلام والسلطة الدينية) و (الإسلام والحرب الدينية) و(الإسلام والوحدة الوطنية) و (الإسلام والعروبة) و (الإسلام وقضايا العصر) و(الإسلام وفلسفة الحكم) .. إلخ ..

(٢) رواه مسلـم وأبـو داود والـدارمـى والترمـذى والنسـائى وابـن مـاجـة والإمـام أحمد .

إذا كان هذا هـو شـأن اجتهادات الصحابة ، بـالنسبة إلى « حكم الله » . . فأحـرى أن تكون هـذه السنة مـرعية ، وأن يكـون على وعى بها الكـاتبون والقارئون على السواء!.

كذلك ، فإننا لا نتحدث فى هذا الكتاب ، عن رأى الإسلام فى مطلق الفن .. فرغم أن الفن إنما يعنى مطلق الموهبـة والمهارة . . إلا أننا نقصد إلى الحديث عن رأى الإسلام فى « الفن الجميل » على وجه الخصوص .

وإذا كان الفن هـو : « التطبيق العملى للنظرات العلمية ، بالـوسائل التى تحققهـا . . وجملـة الوسـائل التـى يستعملهـا الإنسـان لإثارة المشـاعـر والعواطف ، وبخاصة عاطفة الجمال ـ كالتصوير ، والموسيقى ، والشعر ـ.. وهو تعبير خـارجى عما يحدث فى النفس من بـواعث وتأثيرات ، بـواسطة الخطـوط أو الحركـات أو الأصـوات أو الألفاظ . . وهـو مهـارة تكتسـب بالـدراسة والمرانة . . فإنـه ـ فى مقامنـا هذا ـ ليس مطلـق المهارة . . وإنما المهارة التى يحكمها الذوق الجميل والمواهب الرشيدة . .

وإذا كان الجمال هو: البهاء والحسن والزينة ، التى تقع ـ كما يقول ابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ ـ ١١٦٠ ـ ١٢٣٣م) ـ على الصور والمعانى . . فإن خروج المهارات ـــ أى الفنون ـ عن المقـاصد الرشيدة ، يجردهـا من شرف الاتصاف بالجمال !.. فـابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) ـ الفيلسوف المسلـم ـ قبل عشرة قرون ـــ يرى أن جمال المقاصد والغـايات شرط فى وصف المهارات بصفة الجمال ، فيقول : « وجمال كل شىء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له »[٣] .. وعلى ذات الدرب ـ وفى عصرنا الحديث ـ

---

(٣) انظر ذلك فى (لسان العرب) ـ لابن منظور ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة و(المعجم الفلسفى) ـ وضع مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ١٣٩٩ / ١٩٧٩م. و(المعجم الوسيط) ـ وضع مجمع =

يقول الناقد والأديب الروسى بلنسكى Belinsky (١٨١١ ـ ١٨٤٨م) : «إن الجمال شقيق الأخلاق ، فإذا كان عمل فنى ما فنيا حقيقة فهو أخلاقى بنفس المعنى . . فإن الصور الفنية الإيجابية التى تعكس حياة الناس ونبلها وجمالها تفرض الاحترام والحب والاعجاب المخلص ، وتعطى أنماط الأبطال الحقيقيين فى الحياة للقارئ والمتفرج متعة وبهجة جماليتين . أما الصور السلبية ، فإنها تثير مشاعر الاستنكار الأخلاقى والاحتقار التى ترتبط ارتباطا وثيقا فى طابعها بمشاعر الازدراء والاحتقار التى نحسها عندما ندرك ما هو قبيح ودنئ . ومن ثم فإن وحدة الجمالى والأخلاقى هى أساس الدور التربوى ودور التحويل الأيديولوجى اللذين تقوم بهما الفنون فى الحياة الاجتماعية . . » (٤)

هكذا يتفق ما كتبه الفيلسوف المسلم ابن سينا ـ فى (النجاة) ـــ قبل عشرة قرون ـ مع ما كتبه الناقد الروسى بلنسكى ـ ونشرته (الموسوعة الفلسفية) السوفيتية ـ حديثا ، على اشتراط جمال المقاصد والغايات لإضفاء صفة الجمال على المهارات ـ الفنون ـــ « فوحدة الجمالى والأخلاقى هى أساس الدور التربوى ودور التحويل الأيديولوجى اللذين تقوم بهما الفنون الجميلة فى الحياة الاجتماعية . . وجمال كل شىء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له ! . . » . . كما يقول ابن سينا وبلنسكى! . .

تلك هى مضامين المصطلحات ، التى جعلناها عنوانا لهذا الكتاب . .

= اللغة العربية ـــ القاهرة ١٣٩٢ / ١٩٧٢م. و (المعجم الفلسفى) وضع : يوسف كرم ، ويوسف شلالة ، ود مراد وهبة . طبعة القاهرة ، ١٩٧١ م .

(٤) (الموسوعة الفلسفية) ـ السوفيتية ـــ بإشراف : م. روز نتال ، وب. يودين ترجمة . سمير كرم طبعة بيروت ، ١٩٧٤ م ، مادة « الجمالى والأخلاقى »

فنحن نعنى بـ « الإسلام » : رأينا واجتهادنا ورؤيتنا لموقف الإسلام فى هذه القضية . . . و « الفنون » ، التى نجتهد لنقدم فيها رأى الإسلام ، هى الفنون « الجميلة » . . الجميلة فى ذاتها ، كثمرة للمهارات الفنية العبقرية للإنسان الفنان . . والجميلة ، أيضا ، فى المقاصد والغايات التى تتغياها فى الحياة الاجتماعية بالمجتمع الذى أُبدعت فيه .

* * *

كذلك ، فنحن لا نعنى ببيان رأى الإسلام فى الفنون الجميلة ، أن هناك «فنونا ـ دينية » ، هى تلك التى يرضى عنها دين الإسلام . . ذلك أن الدين : «وضع الهى ، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ماهو عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . » (٥) . . والعلوم التى هو ـ الدين ـ موضوعها هى العلوم «الشرعية» . . بينما « الفن » إبداع بشرى ، وهو داخل ـ عند تصنيف العلوم ـ فى علوم الحضارة وفنونها . . ورغم « الصلة » التى تقيمها عقيدة الفنان وأيديولوجيته بين فلسفتها وبين « الفن » الذى يبدعه ، فإن هذا « الفن » يظل غير « العقيدة » ، وإن وقفت المغايرة عند « للتميز » فلم تهبط إلى «الانفصال » التام ، كما لم ترتفع إلى « الاتحاد » التام . .

فالفن المتسق مع الإسلام ، هو ذلك الذى يحقق مقاصده فى أمته وفى الإنسانية ، عندما تشيع فيه الصبغة التى صبغت بها عقيدته وميزت بها أيديولوجيته إبداع الإنسان الفنان . . إنها خيوط غير مرئية ، تلك التى تربط « الوضع الإلهى » «بالإبداع الإنسانى الجميل » . .

ونحن نستطيع أن نتلمس هذه الخيوط فى « الفطرة الجمالية السليمة » ،

---

(٥) الشريف الجرجانى (التعريفات) ـ مادة : الدين ـ طبعة القاهرة ـ سنة ١٩٣٨ م .

التى لابد وأن يزكيها دين الفطرة : الإسلام!. . وفى نصوص الوحى الإلهى - القرآن الكريم - تلك التى عرضت لقيمة الجمال ودوره فى خلق الله ، وفى حياة الإنسان ، وفى مهام العمران بالمجتمعات . . وفى البيان النبوى — السنة النبوية الشريفة — التى جسدت مقاصد الوحى الإلهى فى هذا الميدان . . وفى الاجتهادات التى مثلت « ثوابت » الفكر الإسلامى . فى موقف الإسلام من الفنون الجميلة ، عبر تاريخ الاجتهاد فى حضارة الإسلام . .

تلك هى مهمة هذا الكتاب ، التى تحاول أن تنهض بها فصوله ، سواء منها تلك التى درسنا فيها مختلف جوانب القضية . . أو تلك « النصوص » التى سقناها فى « الملحق » الذى ذيلنا به هذا الكتاب ، والتى قدمنا فيها أبرز الاجتهادات التى عرضت للقضية ، والتى مثلت وتمثل معالم الاجتهاد الإسلامى فيها عبر الزمان . . وعبر المكان . . وعبر المذاهب التى انحاز إليها هؤلاء الأئمة المجتهدون .

فإذا استطاعت صفحات هذا الكتاب أن تحسم هذه القضية . . قضية موقف الإسلام من الفنون الجميلة . . وأن تصل بفرقاء النزاع المحتدم حولها إلى كلمة سواء . . بلغنا الغاية من وراء الجهد الذى بذلناه فيه . .

والله من وراء القصد . . منه نستمد العون والتوفيق .

دكتور : محمد عمارة

الفصل الأول
المسلم . . والجَمَال

من الناس من يحسب أن هناك خصومة بين الإسلام وبين الجمال ، تدعو المسلمين إلى التجهم فى النظرة إلى الحياة ، وإدارة الظهر إلى ما فى الكون من آيات البهجة والزينة والجمال . . يحسبون ذلك ، فيقولونه ، أو يعبرون عنه بالسلوك المتجهم إزاء آيات الجمال والفنون والابداعات الجمالية فى هذه الحياة .

ولو كان هذا المسلك الخشن والغليظ والمتجهم ، أثرا من آثار المحن التى يُمتحن بها المسلمون فى مرحلة الاستضعاف التى يعيشونها ، ورد فعل للتحديات المعادية التى تفرض الهم والحزن على الوجدان الإسلامى المرهف، أو مظهر الغضبة لحرمات الله المنتهكة ، لكان ذلك مبررا ومفهوما .. لكن أن يكون هذا التجهم ، فى نظر هذا الفريق من الإسلاميين ، هو مما يقتضيه المنهج الإسلامى فى الحياة ، فذلك هو الذى يدعو إلى استجلاء منطوق ومفهوم المنهج الإسلامى إزاء جماليات الحياة .

وجدير بالتنبيه أن هؤلاء الذين يحسبون قيام علاقة التلازم بين التجهم ومخاصمة الأحاسيس الجمالية وبين منهج الإسلام ، منهم الإسلاميون ،

الذين يحسبون ـ مخلصين ـ أن هذا هو الموقف الحق للإسلام الصحيح فى هذا الموضوع ، ومنهم الخصوم الذين يتخذون من مسلك الغلظة لبعض الإسلاميين تجاه جماليات الحياة سبيلا للطعن على الإسلام . . فالقضية ، إذن ، أكبر من أن تكون «خيارا خشنا » لبعض من الإسلاميين هم أحرار فى سلوكه ، وإنما هى قد غدت واحدة من المطاعن التى يحاول نفر من خصوم المنهج الإسلامى استخدامها ـ ضمن مطاعن أخرى ـ لتشويه صورة منهج الإسلام فى الفكر والحياة . . الأمر الذى يكسب الحديث عن هذه القضية أهميته ، ويجعل له مكانه الطبيعى فى سياق الحديث عن معالم منهج الإسلام.

* * *

وبادئ ذى بدء ، فإذا كانت « الحضارة » هى جماع إبداع الأمة فى عالمى « الفكر » و « الأشياء » ، أى فى « الثقافة » التى تهذب الإنسان وترتقى به ، وفى « التمدن » الذى يجسد ثمرات الفكر ـ فى التطبيق ـ والتقنية ـ أشياء يستمتع بها الإنسان المتحضر . . إذا كانت هذه هى « الحضارة » ، فإنها ـ كإبداع بشرى ـ فى المنظور الإسلامى وفى التجربة الإسلامية ، وثيقة الصلة بدين الإسلام ، كوضع إلهى ، نزل به الوحى على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

ففى التجربة الحضارية الإسلامية ، كان « الدين » هو الطاقة التى أثمرت ، ضمن ثمراتها ، توحيد الأمة ، وقيام الدولة ، والإبداع فى كل ميادين العلوم والفنون والآداب ، شرعية وعقلية وتجريبية ، كما كان الدافع للتفتح على المواريث القديمة والحديث للحضارات الأخرى ،

وإحيائها ، وغربلتها ، وعرضها على معايير الإسلام ، واستلهام المتسق منها مع هذه المعايير ، لتصبح جزءا من نسيج هذه الحضارة الإسلامية ، التى وإن كانت إبداعا بشريا ، إلا أنها قد اصطبغت بصبغة الإسلام الدين ، كما كانت ثمرة للطاقة التى مثلها وأحداثها عندما تجسد فى واقع المسلمين . .

تلك هى العروة الوثقى بين دين الإسلام وبين حضارته ، بما فيها من إبداع شمل مختلف الميادين .. الشرعية .. والعقلية .. والتجريبية .. والجمالية..

بل إننا لو تأملنا فى مكان « الهجرة » فى دعوة الإسلام ودولته وأمته ، لرأيناها أكثر وأكبر من إنجاز لإنقاذ الدعوة من حصار « الشرك المكّى » . . لأن الهجرة فى حياة هذه الدعوة لم تقف عند الهجرة من مكة إلى المدينة ـ ومن قبلها الحبشة ـ وإنما كانت ، أيضا ، هجرة من « البداوة » ، إلى «الحضارة » ، من « البادية » إلى « الحاضرة » من حياة « الأعراب » ، التى تغلب عليها الغلظة ويسود فيها الجفاء ، إلى حياة « العرب » الذين استقروا فى « القرى » . فغدا بإمكانهم أن يقيموا « مدنية » و « حضارة » فى هذه «القرى » . . كانت إنجازا حضاريا ، ينتقل بالجماعة البشرية من طور ترحال البداوة الذى يستحيل معه قيام « التراكم » فى الإبداع ـ الثقافى والتمدنى ـ إلى طور الاستقرار والحضور فى « القرى » الحاضرة ، الأمر الذى يتيح لابداعات الإنسان أن « تتراكم » ، فتعلو بناء حضاريا مناسبا للجهد الإبداعى المبذول فيه . .

تلك هى « المكانة الحضارية » للهجرة فى حياة دعوة الإسلام ، فى عصر صدر الإسلام . . وتلك هى بدايات خيوط العروة الوثقى بين الإسلام الدين

ـ الوضع الإلهى ـــ وبين الحضارة الإسلامية ـ الإبداع الإسلامى لأمة الإسلام . .

وفى ضوء هذه « الحقيقة الحضارية » ، نفهم اصطفاء الله ، سبحانه وتعالى ، « مكة » ، أم القرى ـ وحاضرة الحواضر ـ مهبطا للوحى بالدين الجديد . . ونفهم مغزى كون « يثرب » ـ المدينة ـــ وهى ثانية القرى والحواضر ـ هى دار الهجرة وعاصمة الدولة ومنارة الدعوة . . بل ونفهم سر استمساك القرى والحواضر الثلاث ـــ المدينة ومكة والطائف ـــ بالإسلام، يوم ارتدت عنه ، أو عن وحدة دولته ، البوادى بمن فيها من الإعراب ، عندما زلزلت وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلوب هؤلاء البدو والأعراب ؟!.. نفهم جميع ذلك فى ضوء العلاقة العضوية بين هذا الدين وبين الإبداع الحضارى للإنسان الذى تَدَيَّن بهذا الدين . .

بل ونفهم أن هذه العلاقة بين « الدين » وبين « الحاضرة » ، ومن ثم «الحضارة » ، ليست خصيصة إسلامية ، وإنما هى سُنة من سُنن الله فى كل الشرائع والرسالات .. فكما اصطفى الله حاضرة مكة ، لتبدأ منها الدعوة ، قائلا لرسوله : (.. ولتنذر أم القرى ومن حولها) (1) .. أنبأنا فى قرآنه الكريم، أن هذا الاصطفاء إنما كان اطرادا لسُنة إلهية . . (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) (2) .. فأم القرى ، وحاضرة الحواضر كانت دائما هى موطن الرسل والرسالات ، وذلك للعلاقة العضوية بين « الدين » و«الحضارة » ، على امتداد تاريخ الإنسان .

ولأن هذا هو دور « الهجرة » فى دعوة الإسلام وأمته ودولته ، ولأن هذه

هى وظيفتها الحضارية ـ الانتقال بالإنسان ـ الأعرابى ـ من غلظة البادية وتجهم خشونتها ـ إلى مدنية الحاضرة وتثقف ـ تهذب ـ عقول أبنائها ـ . . لأن هذا هو دورها ، وهذه هى وظيفتها الحضارية ، كان المسلمون يستعظمون ويستنكرون رجوع المهاجر عن « المدينة » وانقلابه إلى «البادية» مرة أخرى حتى لقد سموا هذا الانقلاب « ردة » . . وقرأنا فى مصادر السُّنة ذلك السؤال الاستنكارى الذى سأله أحد الولاة لمن عاد فتعرب ـ رجع أعرابيا بعد هجرته ـ : « أرتددت على عقبيك ، تعربت ؟! » (٣).

تلك هى بدايات الخيوط بين الإسلام الدين وبين الحضارة . . وهى بدايات لا ترشحه كى يوحى بالتجهم إزاءها ، ولا بمخاصمة إبداعاتها الجمالية بحال من الأحوال ! . .

ثم . . . إن « الجمال » ، الذى يظن بعض من الناس مخاصمة الإسلام إياه ، هو ـ إذا نحن تأملناه ـ بعض من آيات الله ، سبحانه وتعالى ، التى أبداعها فى هذا الكون ، وأودعها فيه . . إنه بعض من صنع الله وإبداعه ، سبحانه ، سوّاه وسخّره للإنسان ، طالبا من الإنسان أن ينظر فيه ، ويستجلى أسراره ، ويستقبل تأثيراته ، ويستمتع بمتاعه ويعتبر بعبرته (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبًا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) (٤) . . إنها آيات خلق الله ، يأمر الإنسان أن ينظر فيها .

وأينما يمم الإنسان بصره أو بصيرته أو عقله أو قلبه ، فإنه واجد آيات الله التى خلقها « زينة » للوجود ، ودعاه إلى النظر فيها . . (إنا زينا السماء

الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد) [٥] . . (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم) [٦] . . (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظا من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين) [٧] . . (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) [٨] ..

فهذه « الزينة » ـ التى هى آيات إبداع الله ، سبحانه وتعالى ، هى « زينة ـ جمال » يدعو الله الإنسان إلى النظر فيها . . بل ويقول لنا إن خلقها ليس «للحفظ » فقط ، ولا « للمنفعة » وحدها . . وإنما « للزينة » التى أبداعها الله لينظر فيها الإنسان ويستمتع بما فيها من جمال ! . .

ومثل ذلك حديث القرآن الكريم عن آيات خلق الله التى أبداعها لنا فى صورة « الحيوان » المسخر للإنسان . . فليست « المنفعة » المادية وحدها هى الغاية من هذا الخلق والتسخير ، وإنما « الجمال » و « الزينة » أيضا غايات يتغياها الإنسان فى هذا الخلق الذى خلقه الله . . (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون) [٩] .

فليست « المنفعة المادية » فقط هى غاية خلقها وتسخيرها للإنسان ، إذ « الجمال والزينة » كذلك « منفعة » محققة ولازمة ، أيضا ، للإنسان ! . .

والبحار ، التى سخرها خالقها للإنسان . . لا تقف منافعها عند المنافع المادية – اللحم الطرى ، وسبل الاتصال – وإنما إبتغاء « الحلية . . والزينة..

والجمال » ، أيضا ، من منافعها . . (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) (١٠) .

وعندما يشير الله سبحانه إلى بعض من نعمه وآياته . . نرى قرآنه الكريم يلفت النظر إلى ما ينزل من السماء من ماء تمتلئ به الأودية فيحيى الأرض ويزينها للناظرين . . وإلى ما يستخرجه الإنسان ، بالنار ، من حلى الزينة والجمال ، المستخرجة من معادن الأرض . . ففى الزرع : طعام ، وزينة ، وفى الذهب والفضة : نقد ، وحلية وجمال يتجمل به الإنسان . . (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال) (١١) . .

إن هذا الجمال وتلك الزينة . . هى آيات الله ، أبدعها وبثها فى هذا الكون ، وأمر الإنسان أن ينظر فيها . . إذن ، فالنظر فى هذا الجمال ، والاستقبال لآيات الزينة ، وفتح قنوات الاحساس الإنسانى على صنع الله هذا ، هو امتثال لأمر الله ، سبحانه وتعالى (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) . . (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها . .) . . وهذا النظر ، فى هذه الآيات ، هو سبيل من سبل الاستدلال على وجود الله ، وعلى كمال قدرته وبديع صنعته . . وما تعطيل النظر فى آيات الجمال هذه - باصطناع الخصومة بين الإسلام وبين جماليات الحياة - إلا تعطيل للدليل على وجود الصانع المبدع لهذه الآيات ! . .

ويستوى مع هذا التعطيل للنظر - بقمع أدواته وسد قنواته وإهمال